

الاقتراض اللغوي في العربية

فوجي رهايو

محاضرة في معهد تولا نج باوانج الإسلامي

الملخص

اللغة من أعظم الظواهر الاجتماعية الإنسانية خطراً وأهمها أثراً، لما تؤديه من وظائف الربط بين سائر الظواهر الاجتماعية الأخرى. فهي بهذا تمثل العامل المشترك بينها جميعاً، لذا ظهر في القرن التاسع عشر المنهج الذي ينادي بأن اللغة لا يمكن أن تستقل عن علم الاجتماع، بحسبانها سلوكاً اجتماعياً ينمو بمحاولات المرء سد حاجاته في مجتمعه. فهي خاضعة لآحوال الإنسان المختلفة ولا أعضاء نطقه وللتطورات الاجتماعية وغيرها من المؤثرات وهي في بعض أجزائها قياسية منتظمة محكمة وفي البعض الآخر سماعية لا ضابط ولا قيد لها سوى الاستعمال عند أفراد المجتمع الذين لا تنكاد أذانهم تخطئ أدق خروج على اللغة. ويزيد في أهمية اللغة أكثر من ستة عوامل أخرى عنى بعضهم بشرحها وتفصيل الحديث عنها لتؤكد جميعها هذه الأهمية المطلقة للغة ظاهرة اجتماعية إنسانية.

والاقتراض اللغوي ظاهرة لغوية معرفة، تعدّ إحدى وسائل تنمية الثروة اللغوية، فاللغات تتبادل التأثير فيما بينها، ويستعين بعضها بالفاظ البعض الآخر وأساليبه في سد حاجته من المفردات والتعابير التي تعوزه، والتي تصبح فيما بعد جزءاً من تلك اللغات. ولا غرو في أن هذا الدافع هو السبب الشائع في كل اقتراض لغوي، وهو امر ينطبق على اللغات جميعاً في أغلب الحالات.

أ - مقدمة

إن الاقتراض اللغوي يختلف مضمونه وتعددت تعريفاته قضية لغوية في المقام الأول. وما يجمع المعاني المختلفة للتعريب هو عاملان كونها جميعاً تتعلق بظواهر لغوية، وكون هذه الظواهر في مجملها تتصل باللغة العربية. وتاريخ اللغة العربية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الحضارة العربية الإسلامية بحيث لا يمكن فهم واحدة دون الأخرى. ولذلك فالاقتراض اللغوي ليس قضية لغوية فحسب بل هو أيضاً قضية حضارية واجتماعية.

وقد كانت الثقافة العربية قبل الإسلام ثقافة شعرية ذات طابع شفهي فرضتها، كما يرى بروكمان، طبيعة حياة العرب البدوية الرعوية المتنقلة. ولم يكتب من أشعار الجاهلية إلا الأشعار المهمة فقط في مناسبات الأسواق التجارية التي تتيح بعض الاستقرار النسبي. ومارس عرب ما قبل الإسلام ديانة وثنية في معظم أرجاء الجزيرة. وبالرغم من انتشار النصرانية واليهودية بين قبائل قضاة وتميم وطى وتردد ذكر أسماء الراهبان في شعرهم إلا أنه لم تنتشر بينهم ثقافة مسيحية حقيقية. على عكس حال نصارى الحيرة الذي يغلب على حياتهم الاستقرار النسبي فقد انتشرت بينهم الثقافة النصرانية ولذلك بقوا على نصرانيتهم إلى العهد العباسي.

فعر الجاهلية وصدر الإسلام في جنوب الجزيرة ووسطها وشمالها جميعهم اقترضوا باستمرار الفاظاً ممن جاورهم من حضارات بالرغم من أنهم لم يتطرقوا لهذه القضية في آدابهم ولم يسموها تعريباً. فاقترض اللغة العربية عملية ثابتة مستمرة لأنها كانت محكومة بموارد الموع الثقافات المجاورة، إلا أن ذلك قد يتسارع أو يتباطأ لعوامل عارضة مختلفة. فمن المستحيل على لغة ماحية كالعربية تنتشر في منطقة ظلت دوماً منطقة التقاء وصراع لحضارات مختلفة أن تنأى بنفسها عن عوامل التأثير والتأثير اللغوي.

كما يتضح فلم يكن لعرب الجاهلية لانعدام الاستقرار نصوص حضارية مركزية ولا لهجة مركزية بالمعنى المفهوم ولم يكن لهم حس قومي أو ولاء أممي وإنما كان ولائهم الأول لقبائلهم وأنسابهم ولذلك لم تكن لهم عصبية لغوية ولذلك اقترضوا من الحضارات المجاورة بصورة تلقائية. ولم تشكل قضية الدخيل والأصيل حاجساً بالنسبة لهم. هذا بالرغم من أن بعض المعلقات تعلق على الكعبة، وأن بعض القصائد المشهورة تلقى في سوق عكاظ القريب من مكة، إلا أن لهجة قريش لم تكن قد اكتسبت صفة اللهجة المركزية بعد. ولم تكن للعرب، ثقافة ثرية بمعنى الكلمة عدد بعض الأمثال وبعض الخطب والقصص التي تمجد أيام العرب، وتتكلم عن الحيوانات وبعض الخرافات.

ويجدر بالذكر هنا أن القريش الذين أثروا في العرب كثيراً وتأثروا أيضاً بهم، شأنهم شأن الحضارات الأخرى فاقترضوا من عرب الجاهلية بعض أنماط وتفعيلات الشعر الجاهلي التي دخلت الفارسية الفهلوية وكذلك المصطلحات المتعلقة بالصحراء ومنتجات اليمن وجنوب الجزيرة وأكتب

ملوك الفرس بعض العرب كعدي بن زيد وغيره في دواوينهم واستخدموه كمترجمين. إلا أن حجم تأثير أوثأثير حضارة مايعتمد على مدي قوة تلك الحضارة واتعاشها ونظرة الحضارات الأخرى لها، فقول ابن خلدون بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب مهم إلى حد كبير في هذا الشأن.

ونتيجة لظهور الإسلام وبدء مرحلة الفتوحات الإسلامية وتوسع الدولة الإسلامية وزيادة التمازج الحضاري بين العرب وجاراتهم من الحضارات الأخرى تغير وضع اللغة العربية كثيراً. فنزل القرآن الكريم على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليكون نصاً لغوياً مركزياً التفت حوله قبائل العرب. وقد جاء هذا النص الرباني بتشريع ديني ومدني كامل ساهم في لشملة وزيادة تلاحم القبائل العربية المتناحرة سابقاً. وأحدث نقلة ثقافية في مفاهيم العرب وقيمهم التي أصبحت تتكلم عن المساواة والعدل بدلاً من الشجاعة والقتال والحرب. وكان لدعوة الإسلام إلى المساواة والعدل، أثر كبير في تهافت العرب وغير العرب على قبول الرسالة المحمدية ودخول الإسلام بشكل كبير وسريع ومن ثم قبول الشعوب الأخرى للغة العربية والتحمس لتعلمها. فانتشرت اللغة العربية وازدادت أهميتها بالنسبة لما جاورها من اللغات. أما على مستوى اللغة العربية ذاتها وهذا أمر مهم جداً، فقد أسهم ظهور الإسلام أيضاً في إيجاد لهجة عربية مركزية التفت حولها العرب وغيرهم هي لهجة قريش ولغة القرآن الكريم. وهي لهجة تتوفر فيها إلى جاني الأهمية الدينية، عوامل أخرى تؤهلها للعب مثل هذا الدور إذ تحتل مكاناً جغرافياً وسطاً نسبياً على طريق تجاري هام وتكلمها قبيلة ذات غنى واسع يشتغل أهلها بمعظمهم بالتجارة، وبها تعقد أسواق تجارية وثقافية بصفة منتظمة أشبه ما تكون بالمؤتمرات الدورية.

وعليه أصبحت لهجة قريش اللهجة المعيارية التي أطلق عليها العربية الفصحى وأصبحت هي المركز الذي تبلور حوله مركز الجذب اللغوي العربي. فأخذت العربية بالتمركز وتعاظمت قوى الجذب المركزي فيها وانتقلت من طور التأثير إلى طور التأثير، فالفرس على سبيل المثال، الذين أثروا في العربية قبل الإسلام، تأثروا بالعربية بعد الإسلام، وتعلموا العربية وترجموا إليها، وليس العكس، ولعب القرآن الكريم دور النص المركزي المحافظ على العربية إلى يومنا هذا.

وقد مهد الإسلام لظهور كان سياسي إسلامي منظم تتوفر فيه عناصر الدولة، وذو طابع عربي لكون اللغة العربية هي لغة هذا الكيان. وأصبح للعرب أدباً غنياً بمعنى الكلمة بعد دخول أساليب جديدة

في الكتابة للغة العربية، وهوشي لم يكن قبل ظهور الإسلام. وكان طبيعياً عند انتشار اللغة العربية بهذه السرعة أن تبدأ على هوامشها عوامل التغير. وهذه إنما سبقها تأثير العرب بطرق معيشة الحواضر التي فتحوها، واستقرارهم فيها واختلاطهم بأهلها، ودخول أساليب جديدة في معيشتهم. فبدأت في العربية مرحلة ما يمكن تسميته بالاقتراض أو التعريب الذي يتجه من الهوامش اللغوية للغات واللهجات المجاورة. واحتلت اللغة العربية الفصحى مكانة مركزية بين اللغات المجاورة. ومن هنا بدأ الاهتمام باللغة العربية من العرب وغيرهم على حد سواء.

فالعرب كما يقول الدوري، بعد أن حملوا راية الإسلام في البلاد التي فتحوها أحسوا بدورهم التاريخي وبأهميتهم وجعلوا ينظرون لأنفسهم كقوة ممتازة، ويشعرون بنوع من الاستعلاء على الشعوب الأخرى. وكان هذا الشعور منتشرًا بين عليّة القوم منهم الذين ملكوا الجوارى والخدم من الأجناس الأخرى، وقاس هؤلاء عربوتهم بانتمائهم للغتهم العربية. ^١ وحرصوا على تعليمها لأولادهم لتأكيد تميزهم عن غيرهم وحفاظاً على عربوتهم. أما غير العرب من الأقاليم البعيدة فقد حرصوا على فهم وتعلم اللغة العربية التي يستخدمونها في العبادة والكثير منهم تعلم العربية ولم يكتسبها اكتساباً.

ومما لا شك فيه فقد حصل تغير كبير في الحياة العربية في ذلك الوقت فظهر للعرب مدن وحواضر مثل البصرة والكوفة وبغداد التي اختلطت فيها القبائل العربية كميم وقريش وباهلة وثقيف بالفرس والآراميون والنخ واليونانيون واليهود وغيرهم. وتطبع العرب ببعض من طباع الشعوب التي احتكوا بها وحاكوها في طرق معيشتها.

وقد ساعد على انتشار العربية في المجتمعات الجديدة انتشار استعمال الورق الذي جلب من الصين في البداية ثم تصنيعه في خراسان، وعما استخدمه بعض الحواضر العربية، فكثرت ذكر الورق والوراقين في ذلك الوقت. فبدأ عصر جديد للحضارة الإسلامية لعبت فيه اللغة العربية دور اللغة الوسيطة.

^١ الدوري عبد العزيز، الإسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب في "القومية العربية والإسلام، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢ ص ٦١-٩٩.

ومن هنا اكتسبت كلمة الاقتراض أو التعريب معنى جديد يتعلق إلى حد كبير بوصف التغير الذي يطرأ على الكلمات الجديدة التي أدخلتها الشعوب الإسلامية الأخرى في العربية وكيفية التعامل مع المفردات والمصطلحات الجديدة التي يرغب الكثير ممن الباحثين إدخالها اللغة وقد كان دخول الكلمات إلى العربية في ذلك الوقت يتم بشكل مكثف لفت على ما يبدو وأنظار النحاة واللغويين العرب .

كان الهدف بادئ الأمر علمياً بحثاً وهو التفريق بين ما هو عربي أصلاً وبين ما هو عربي مستحدثاً في اللغة العربية ذلك الوقت . ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى محاولة أو جهود منظمة أو مقصودة للتعريب أو الاقتراض أو الحد من دخول تلك الكلمات التي كانت تعرب بصورة تلقائية . وموقف اللغويين من الدخيل كان موقفاً موضوعياً ولم يتبلور بعد إلى موقف أخلاقي أو موقف تطهير لغوي وأقتصر على جانب واحد فقط من اللغة هو الجانب المعجمي الصريفي المتعلق بالاقتراض اللفظي . وربما يكون لقوة مركز العرب الحضاري في ذلك الوقت دور في ذلك ، لأنه لم يكن هناك بالنسبة لهم ما يخشونه من الثقافات الأخرى ، فكانوا أقل حساسية تجاه الاقتراض اللغوي منهما الآن .

ب - مفهوم الاقتراض اللغوي

المراد بالاقتراض اللغوي هو المفردات المعرّبة والدخيلة التي أضيفت إلى القاموس من مفردات لغات أجنبية . وكان المعرّب فيها خاضعاً للقوانين الصوتية العربية مما يسهّل النطق بها ويسهّل انتشارها . وكان الدخيل فيها مستعملاً بلفظه الأجنبي دون خضوع للقوانين الصوتية العربية^٢ .

وقد حدث الاقتراض اللغوي عن طريق الاحتكاك بالشعوب الأخرى: لغويًا وسياسيًا وماديًا، الأمر الذي أدّى إلى دخول كثير من المفردات الأجنبية في اللغة العربية - خاصة الفارسية والسريانية والتركية^٣ . وذلك عن طريق الجوار والمخالطة، لأنّ العرب كانوا قبائل عديدة متفرقة، يخالطون جميع الأقوام المجاورين لهم: فتغلب كانوا مجاورين لليونان، وبكر للقبط والفرس، وعبد القيس وأردعُمان كانوا

^٢ على عبد الواحد وافي، فقه اللغة، نهضة مصر - ٢٠٠٤، ص. ١٩٣

^٣ نفس المرجع

بالبحرين محالطين للهند والفرس، وأهل اليمن كانوا محتلطين مع الهند والحبشة، وثقيف وأهل الطائف كانوا محالطين لتجار اليمن المقيمين عندهم.

وكان من نتائج ذلك الجوار وتلك المخالطة: أن حلت العربية محل الآرامية والفارسية في العراق، وقهرت العربية كلاً من: السريانية واليونانية في الشام. كما حلت العربية محل القبطية في مصر، ومحل البربرية في معظم نواحي المغرب. ولا يعني ذلك: أن اللغة العربية هي صاحبة الاستقلال بالاقتراض اللغوي، إذ من المعلوم أن اقتراض المفردات يُعتبر حركة طبيعية لأي لغةٍ براد لها أن تتطور وتنمو. فقد أقرضت اللغة العربية غير هامة من اللغات أشياء كثيرة، واقتضت من غيرها أشياء كثيرة كذلك، وهذه أهم ملامح اللغات الحية الفاعلة. وأقرب دليل على ذلك: أن اللغة العربية التي تأثرت بمجموعة من الألفاظ الفارسية، قد أمدت اللغة الفارسية وغيرها من اللغات الشرقية كالأوردية والتركية. بل إن معاجم الفرس تحوي أكثر من أربعين بالمئة من الألفاظ العربية.

وعلى الرغم من كون الاقتراض اللغوي ظاهرة لغوية عالمية لا تكاد تستغني عنها لغة أي أمة إلا إن ثمة مخاطر تجتمع من هذه الظاهرة في اللغة العربية، منها: ضياع القيمة التعبيرية للجذر العربي، وتغيير البنية الصوتية العربية بإدخال أصوات غريبة عنها، وإرباك المعجمية العربية، وغموض معنى المقترض في معاجنا، وصعوبة ضبط اللفظ المعرب، وخرق القواعد الصرفية العربية، وتضييع خصائص اللغة العربية. ولكن يبقى للاقتراض اللغوي بشقيه: المعرب والدخيل أثره الفاعل قديماً وحديثاً، ودوره الإيجابي في مسيرة الحياة والحضارة؛ حيث ظهرت مستحدثات لم يكن للعرب ولا للغتهم عهد بها من قبل، في ميادين الاقتصاد والصناعة والزراعة والتجارة والعلوم والفلسفة والدين والأدب والسياسة»^٤.

ج- العصر الذهبي للاقتراض اللغوي والتعريب

هناك الكثير ممن يعتبر الفترة بين القرنين الثاني والرابع الهجري على أنها العصر الذهبي للتعريب في الحضارة الإسلامية ويعزون ذلك إلى نشاط حركة الترجمة في عهدي الرشيد والمأمون وفي هذين

^٤ نفس المرجع، ص. ١٩٣

العهدين شهدت الدولة الإسلامية قدراً كبيراً من الاستقرار والازدهار، وكانت عائدات الدولة الإسلامية من الجزية والخراج غير مسبقة من حيث حجمها وانتظام وصولها، فحكم الخليفة هارون الرشيد استمر ثلاثة وعشرين عاماً من ٦٨٧-٩٠٨ م وبلغت فيه حدود الدولة الإسلامية أقصاها، ثم تلاه الأمين الذي لم يدم حكمه إلا أربع سنوات ليأتي المأمون ويتولى الخلافة لمدة عشرين عاماً (٣١٨-٣٣٨ م).

وقد جاء العصر العباسي بكثير من الأسئلة التي احتدم الجدل حولها، مثل مسألة الخلافة وتنزيل القرآن وعلاقة المسلمين بغيرهم ممن يتبعون الديانات الأخرى، فانتشرت المدارس الفكرية الإسلامية المختلفة. وكان الحوار الفكري في ذلك الوقت حواراً فقهياً وفلسفياً عميقاً يتسم بالحرية والانفتاح. وقد شجع المأمون الاجتهاد والاتجاهات العقلانية في التفسير التي تقول بأحقية الأكرفاء في خلافة المسلمين وذلك الرد على غلاة الشيعة الذين يرون الخلافة في سلالته علي رضي الله عنه، ولذلك لم يكن عهد المأمون عهداً منفتحاً، يكفل الكثير من الحريات الشخصية فحسب بل كان القضاء في عهده مستقل إلى حد كبير، مما وفر مناخاً صحياً وبيئة خصبة ساعدت على تطور العلوم وازدهار الحضارة في عصره الذي جمع بين الاستقرار وتوفر الحريات اللازمة.^٥

والخليفة المأمون، هو الذي أنشأ (حسب المصادر التاريخية) أول أكاديمية علمية هي - بيت الحكمة - في بغداد. وكانت تعنى بالتأليف والبحث العلمي ومن بين أنشطتها الترجمة ونقل المعرفة. وقد ذكر ابن النديم أن ما ترجمته في ذلك الوقت يزيد على أربع مائة كتاب منها ٩٤١ كتاب في الطب، وكثير من هذه الكتب ترجم من السريانية لأن أغلب المشتغلين بالعلوم في ذلك الوقت هم من النساطرة النصارى واليهود واشتهر منهم في ذلك الوقت بعض المترجمين مثل اسحق بن حنين، وابنه حنين، ومتى بن يونس، وقسطالوقا والأعسم وغيرهم. وفيها ترجمت كتب الفلسفة والطب من اليونانية والسريانية. وترجم جالينوس وأرسطو، وأفلاطون، وإقليدس وغيرهم إلى العربية ومما يجدر التنويه به هنا هو أن "بيت الحكمة" لم يكن دار ترجمة فقط بالرغم من أنها اشتهرت بالترجمة أكثر من غيرها، فربما كانت دار بحث وتأليف وأن الترجمة ظهرت نتيجة لتلبية حاجة الدارسين والباحثين للاطلاع على العلوم باللغات الأخرى، كما أنها لم تعنى بالترجمة من السريانية واليونانية فقط وإنما عنت بالترجمة من

^٥ آل ياسين، محمد حسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، دار مكتبة الحياة: بيروت ١٩٨٠، ص ٤٠.

الفارسية والهندية وربما غيرها من اللغات، وربما ترجم في بيت الحكمة إلى لغات أخرى غير العربية: كالسريانية واليونانية للفارسية؛ فالسهل بن هارون خازن بيت الحكمة في عهد المأمون كان فارسياً كما كان غيره من الوزراء والكتاب في الدواوين في ذلك الوقت.^٦

وبالرغم من انتعاش حركة الترجمة والتعريب في هذه المرحلة، والتي كانت لها دوافع سياسية وطائفية، إلا أن هناك في معظم الأحيان سوء فهم للدور الذي لعبته الترجمة في تشكيل الحضارة العربية الإسلامية. فالبعض يعزو هذه الحضارة للتعريب ويرى دوراً أساسياً للتعريب في نشوء هذه الحضارة، ومن بينهم بعض الدعاة المتحمسين للتعريب. بينما يرى البعض الآخر وخاصة من المستشرقين أن ما قام به العرب والمسلمون هو فقط ترجمة ومحاكاة التراث اليوناني، وأن العرب والمسلمين لم يكونوا صناع حضارة، وهذا رأي في زعمنا، إضافة لكونه غير مبرر، محجف في حق التاريخ الحضاري العربي والإسلامي، وفيه انتقاص واضح لدورهم التاريخي. إذ أن جميع الشواهد الحضارية توضح تفرد وأصالة الثقافة الحضارة العربية الإسلامية.

ويرى آل علي، أن تأثر العرب بالفرس أعظم وأشمل من تأثرهم بالروم، وقد امتزجت الحضارة الفارسية بالعربية، في مرحلة تشكيل الثانية في العهدين الأموي والعباسي، بشكل موسع طبع اللغة العربية والفنون والموسيقى لدرجة أصبح معها جزء لا يتجزأ من العربية واعتبر عربياً، بينما كان التأثير بالرومان كان محدوداً وبقي هامشياً، ولذلك بقي واضحاً.

والقول بأن الحضارة العربية الإسلامية قامت على النقل والتعريب، وهو قول مردود لعدة أسباب لا بد من الوقوف على بعضها: فالعرب عند ما ترجموا من اليونانية كانوا قد وصلوا إلى مرحلة من التطور الفكري والعلمي الذي يمكنهم من هضم وإعادة إنتاج التراث اليوناني والسرياني وغيره. فعباد (٣٩٩١) يرى أن الحياة الأدبية العربية، على سبيل المثال، كانت في ذلك الوقت «قابلة لأن تتلقى هذا التيار اليوناني بكثير من الاهتمام، فاحتل مكانه منذ البدء بكثير من الوضوح والتميز». ^٧ ويتضح أيضاً من المناظرة المعروفة بين متى بن يونس أحد المترجمين السريان من اليونانية للعربية وبين أبي سعيد السيرافي في مجلس

^٦ نفس المرجع

^٧ نفس المرجع

الوزير الفضل بن الفرات، والتي أوردها أبو حيان التوحيدي في - الإمتاع والمؤانسة، واعترض فيها السيرافي على إمكانية قياس الكلام بالمنطق الإغريقي وأوزانه كما كان يرى متى بن يونس، أن قبول الفكر اليوناني في العربية لم يكن تلقائياً وأنه كان في ذلك الوقت للعرب فكر أصيل يوازن أو يفوق كل ما هو دخیل .
فالحضارة العربية في ذلك الوقت كانت طرفاً فاعلاً مؤثراً في حوارها مع الثقافة اليونانية عبر النصوص التي ترجمها النساطرة المسيحيون .

ودراسات الترجمة الحديثة تؤكد عدم إمكانية الترجمة إلى لغة لا تكافئ أعلى الأقل تقارب اللغة المترجم منها من حيث المستوى العلمي والفكري . والعرب قاموا بالترجمة من اليونانية في بداية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بعد أن بلغت الحضارة الإسلامية شأنًا كبيراً، وبعد أن ظهر كتابا وعلماء وفلاسفة عرب يقارعون التراث المترجم، فالجاحظ (٣٧٧-٩٦٨م) ، والخليل بن أحمد (٨١٧-١٩٧م) والرازي (٥٦٨-٥٢٩م)، والبيروني (٣٧٩-١٠٥١م)، والكندي (٦٩٧-٣٧٨م) والخوانزمری (١٠٨٧-١٠٥٨م) وأبو العلاء المعري (٣٧٩-٧٥٠١م)، وغيرهم كثير، عاصروا فترة بيت الحكمة .^٨

وكما ذكرنا سابقاً فلم تقتصر الترجمة على اليونانية، وإنما كانت أيضاً من الفارسية والهندية، والسريانية، وغيرها . وكثير من التراث اليوناني لم يترجم مباشرة وإنما ترجم من السريانية، وربما أيضاً لم يكن ترجمة أصلاً بل كان نوعاً من التأليف باللغة العربية، التي كما ذكرنا سابقاً أصبحت اللغة الوسيطة للعلم والثقافة في ذلك الوقت، حتى أن العبادة والطقوس الدينية في بعض الديانات الأخرى مثل السريانية، والقبطية واليهودية كانت في ذلك الوقت تتم باللغة العربية .

وهناك دليل آخر على محدودية تأثير العرب بالتراث اليوناني وهو أن الترجمة من اليونانية إلى العربية التي قام بها السريان على وجه الخصوص في ذلك الوقت، كانت ترجمات في مجملها غير دقيقة لأن هؤلاء لم يجيدوا اللغة العربية بالشكل المطلوب ولأنهم، ولأسباب دينية، لم يندمجوا في الثقافة العربية ولم يكن اتصالهم بها قوياً . فكان ناشئتهم يتعلمون في الأديرة، وقل منهم من أجاد العربية مثل حنين ابن اسحق الذي تلقى العربية على يد الخليل بن أحمد . وكما تذكر المصادر التاريخية، كان الكثير منهم يلجأ

^٨ عبد العزيز، محمد حسن، التعريب في القديم والحديث: مع معاجم الألفاظ المعربة، دار الفكر العربي، القاهرة .

إلى الغير في تقويم عبارته العربية، وكانوا محط شك معاصريهم مثل الجاحظ والسيرافي، وفي أحيان كثيرة كانوا محل التندر والطرفة لضعف لغتهم العربية. إضافة إلى ذلك كان دافعهم للترجمة ديني وطائفي في المقام الأول. فهم ترجموا بعض كتب الفلسفة اللاهوتية اليونانية، والمنطق كوسيلة للإقناع ونشر الدين المسيحي^١. وهم لجأوا للمنطق الإغريقي لمقارعة الفلاسفة المسلمين الذين تجاوزوهم في العمق الفكري والإقناع المنطقي.

ويذكر الديان (٣٩٩١) بعض المآخذ على مترجي ذلك الوقت مما ترك أثراً سيئاً على اللغة العربية كإدخال الكثير من الكلمات الأعجمية مما لا تحتاجه اللغة العربية لغرض تقريب النصوص المترجمة لأصولها الأجنبية، أو لعدم الإلمام الكافي باللغة العربية. وكذلك أدخلوا على العربية أساليب جديدة في الكتابة مخالفة للسليقة العربية مثل الإكثار من استخدام الأفعال، والمصادر الصناعية، والأبنية للمجهول. كما أن الكثير من المترجمين ينقصهم التخصص في المجالات التي يترجمون فيها، وأحياناً الاطلاع الكافي على اللغة التي يترجمون منها. وكان الدافع للترجمة في كثير من الأحيان الطمع في العطايا والهبات التي أعدتها الخلفاء في ذلك الوقت على المترجمين^٢.

وربما كان المترجمون في ذلك الوقت يلجأون لتعريب بعض الألفاظ التي تستعصي عليهم ترجمتها أو فهمها كما فعل متى بن يونس عندما عرب كلمة "القوانين" بـ "الفواسس". أو كلمتي "الكوميديا" و "التراجيديا"، على سبيل المثال، اللتين عربهما ابن سيناب "طراغوديا" و "قوموديا" علماً بأن متى بن يونس كان قد ترجم هاتين الكلمتين إلى "الهجاء" و "المدح" بالرغم من التباعد الواضح سواء بين معني الأصل والترجمة أو بين الترجمتين^٣.

فاللغة العربية من أجل أن تستوعب التراث اليوناني والهندي والسندي والفارسي، كان لا بد أن تكون على درجة كبيرة من السعة والتطور، ولا بد أن يتوفر فيها بنى وتراكيب عقلية علمية على قدر كبير من التعقيد، توأكب جميع مالدى تلك اللغات. ولا يمكن، بأي حال من الأحوال، الترجمة إلى لغة تفتقر للبنى

^١ نفس المرجع

^٢ نفس المرجع

^٣ الكاروري، عبد المنعم "التعريب في ضوء علم اللغة المعاصر: دراسة تحليلية للدخيل في اللغة العربية مع

استنباط قوانين". جامعة الخرطوم، ١٩٨٦، ص. ٨٧

المفاهيمية المتجذرة في اللغات المترجم منها؛ ولعل أكبر دليل على ذلك هو صعوبة الترجمة للغة العربية من اللغات الأوربية في الوقت الحالي نتيجة لافتقار اللغة العربية لمثل هذه البنى . فالترجمة من اليونانية والسريانية، على عكسها من الفارسية في بادئ الأمر، تمت على مستوى الأجناس اللغوية المتطورة، أي أجناس الكتابات الأدبية والفلسفية والعلمية التي سبق أن تطورت نتيجة لتمازج ثقافات مختلفة فيما عرف لاحقاً بالحضارة العربية الإسلامية . فالترجمة لم تكن، حسب رأينا، عاملاً حاسماً في ظهور الحضارة الإسلامية، وإنما لعبت دوراً ثانوياً فقط في إثراء التراث العربي والإسلامي .

فقوى الجذب للغة العربية كانت في أوجها في ذلك الوقت، واللغة العربية كانت لغة محورية بالنسبة لجميع اللهجات واللغات المجاورة بما في ذلك اليونانية، وأن إسهامات علماء العرب والمسلمين مثل الرازي، وابن سينا وابن النفيس، وابن رشد، وابن خلدون وغيرهم كثير هي إسهامات خلاقة مبدعة لا علاقة لها بالترجمة من الإغريق أو غيرهم، وأن بعض هؤلاء بالرغم من كونهم مسلمين من جنسيات متعددة غير عربية اسهموا بكتاباتهم في خلق حضارة إسلامية ذات بعد عربي، لأن اللغة، حسب فهم باختين لها، تشكل بعداً معيناً يمكن من خلالها تكوين نظرة أيديولوجية خاصة للعالم الخارجي . واللغة العربية كانت في ذلك الوقت المرأة التي يرى فيها الآخرون أنفسهم والكون من حولهم .

د- البدايات الحقيقية لحركة التعريب

كان القرن التاسع عشر هو عصر هيجل، ونيتشه، وداروين، أي عصر تسيد النموذج التاريخاني الارتقائي لجميع مجالات البحث العلمي بما في ذلك البحث اللغوي . فكان البحث الفيلولوجي التاريخي في أصول وصلات اللغات بعضها ببعض هو النموذج السائد في أوروبا، قد فرضت الحركة الرومانسية رؤية للقومية على أنها تشكل مع اللغة كياناً واحداً لا يمكن فصله وصورت اللغة على أنها مرآة عبقرية وتطور الأمة الناطقة بها، وأن اللغة تتجاوز الفرد وتعكس روح الأمة وتطورها، ومن هذا المنطلق أيضاً قال الرومانسيون بعد مقابلية الترجمة بين اللغات . وفي علوم الإناسة ظهرت الآراء التي تشبه الشعوب من حيث تطورها بأطوار نمو الإنسان . فبعض الشعوب كان ينظر إليها على أنها مازالت في مرحلة الطفولة الحضارية . وفي هذا القرن بدأت معظم الحركات العنصرية الأوربية .

خرجت الأمة العربية من الحكم التركي الذي عزل اللغة العربية لتدخل تحت نير الاستعمار الذي همشها، فهم القوي الاستعمارية الأول كان إيجاد كوادر محلية تتخذه مصالحة وتتكلم لغته تكون واسطة بينه وبين الأهالي. وبدأ العرب، وهم حديثو العهد بإحساسهم القومي، يتوجسون خيفة طغيان اللغات الأوربية على لغتهم القومية. فكان هذا أيضاً عاملاً إضافياً لتأجيج حركة المطالبة بالبعث اللغوي إذا جازت لنا التسمية. وكان هدف التعريب أو الاقتراض ليس فقط استحداث ألفاظ عربية لمفردات أجنبية وإنما أيضاً وضع مفردات ومصطلحات إدارية لتحل محل المصطلحات التركية والفارسية المستخدمة آنذاك في الدوائر الحكومية، وكان هذا هو أحد الأهداف المعلنة لمجمع اللغة العربية الأول في دمشق.^{١٢}

وهنا يجدر الذكر بأنه في بدايات النزعة العروبية، كانت الصبغة القومية هي التي تطبع مطالب العرب جميعاً بمختلف اتجاهاتها تهم بما في ذلك التيار الإسلامي فقد كان عبد الرحمن الكواكبي يري عدم أحقية العثمانيين بالخلافة وأسبقية العرب عليهم في ذلك الحق، بينما كان حسن البنا ١٩٢٩م يرى أن العرب هم "عصب الإسلام وحراسه" ويدعو بمحاسب إلى وحدة عربية.^{١٣}

وكان لا بد لبرنامج البعث العربي الذي تطلعت له الجماهير العربية من قضية يلتف حولها العرب دون غيرهم ممن شاركوهم تاريخهم الطويل الحافل، مثل الفرس، والأتراك الذين يشاركونهم الدين الإسلامي، فلم يكن هناك غير اللغة العربية، التفوا حولها وجعلوها القضية المركزية، وهذا ما جسده أمين أبو خاطر في مقالة في مجلة "المقتطف" ١٩١١م بقوله: "الجنسية لا تعرف من صفات الفرد إلا ماندر والشرائع والنظامات لا تحدد الجنسية حداً صحيحاً فاصلاً... بل ما يحددها هو اللغة لأن بها وحدها يصبح الإنسان عضواً من شعب خاص"^{١٤}. وفي ذلك الوقت ظهرت أيضاً المجامع اللغوية العربية، في سوريا ١٩١١م، وفي مصر ١٩٢٩م.

^{١٢} نفس المرجع

^{١٣} بروكلمان، كارل تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، ت. عبد الحليم النجار، القاهرة: دار

المعارف، ١٩٨٤، ص. ٤٢.

^{١٤} نفس المرجع

وهنا يمكن القول بأن تمحور الشعور القومي العربي في بدايات نهضة الأمة العربية لم يأت من فراغ، وإنما كان لثلاثة أسباب رئيسية: الأول، لأنهم كانوا يبحثون عن شيء يجمعهم كعرب ويميزهم عن العثمانيين الذين سئم العرب العيش تحت حكمهم مع أنهم يشاركونهما الدين؛ الثاني، كان كثير من رعماء حركات الإحياء العربي من غير المسلمين الذين تعلموا في الأديرة وفي مدارس الإرساليات المسيحية في مصر وسوريا ولبنان؛ الثالث، تأثر العرب بحركات البعث القومية الأخرى في أوروبا والبلقان وروسيا، خاصة وأن الكثير منهم كان قد سافر إلى الخارج.

وقد كان هناك أيضاً من غلبته فكرة ضرورة التعليم باللغة الأجنبية كضرورة للنهوض بالأمة العربية مثل خليل أبي أسعد الذي كتب يقول: "إن من قلب فكرته العارية من أسمال التعصب وأعمل جناحه المنزل بيجاد الاستقامة لا يجاد ذريعة حسنة تتكفل بإيضاح عميم المعارف والتمدن إلى قلوب أبناء العرب الناطقين بالضاد بأسرع ما يمكن من الوقت واسدد ما يوجد من الطرق نادى على رؤوس الملأ مصرحاً بوجود تعليم إحدى لغات الممالك الأجنبية المتضلعة في العلوم والتمدن تعليماً مدققاً في جميع المدارس العربية." ^{١٥}

هـ - الخاتمة

بعد هذا العرض التاريخي المقتضب بعض الشيء، والذي يحاول وضع قضية التعريب والاقتراض في إطارها التاريخي الصحيح، المستند على الوقائع والظروف التي واكبت تطور اللغة والمجتمع العربيين، يمكن القول، كما وضحنا سابقاً، بأن التعريب أو الاقتراض بالمفهوم المقصود في أدبيات التعريب في أيامنا، خلافاً لما يعتقده الكثير ممن كتبوا في هذه المسألة، لم يكن له وجود في العصور الإسلامية الغابرة بالرغم من تدخل الثقافة العربية مع الفارسية بشكل كبير وموسع، وبالرغم من أن الحضارة العربية الإسلامية، في عصرها الذهبي بين القرن الثاني والرابع الهجري، قامت بترجمة الكثير من الكتب من الحضارات المختلفة ودخلتها الكثير من المفردات الأجنبية. كما يمكن القول بأنه ليس هناك أي دليل على وجود تعريب منظم، ولا تخطيط لمثل هذا التعريب. وكون بعض أدبيات اللغة العربية قد وصفت

^{١٥} نفس المرجع

ما يطرأ من تغير على بعض الكلمات الأجنبية التي استعارتها اللغة العربي بحكم تداخل العرب وتعايشهم مع غيرهم من الأقوام بأنه تعريب، فهذه الكلمات تغير شكلها كتحصيل حاصل نتيجة لاستخدامها في بيئة لغوية جديدة ونظام لغوي جديد، وهي نتيجة طبيعية للاقتراض اللغوي. ولم تورد أدبيات التعريب المختلفة أدلة كافية على وجود محاولة تدخل مقصودة لتغيير هذه الكلمات أو تغيير مجرى اللغة العربية عموماً، ولذلك فربما يكون من التعميم المفرط الاقتراض الذي يتردد كثيراً في بعض أدبيات التعريب من أن العرب عربوا فنهضوا.

ويمكن أن نخلص بطريق غير مباشرة إلى أن التعريب مرهون بنظرة متكلمي العربية لأنفسهم وموقفهم من لغتهم من ناحية وموقفهم من الآخر من ناحية أخرى. وقد لا يحتاج التعريب لهجوم على اللغة العربية لتطهيرها أو حشوها بالمقابلات المعجمية فيما يسمى مجازاً بـ "المصطلحات"، وإنما يتطلب تصحيحاً للعلاقة المختلة الآن إلى حد كبير مع الآخر الذي هو العالم الغربي، فربما يكون ميزان القوة اللغوي مرتبطاً بصفة كبيرة بموازين القوى الأخرى. لأننا وبعد ما ينيف على مائة عام على محاولات التعريب، نرصد تغيراً وغربة.

قائمة المراجع

- ابن منظور، لسان العرب، الجزء الرابع، القاهرة: دار المعارف. ١٩٨٢
- بروكمان، كارل تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، ت. عبد الحليم النجار، القاهرة: دار المعارف. ١٩٨٤
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، الطبعة الأولى، الجزء الثالث، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١.
- الدوري عبد العزيز، الإسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب في "القومية العربية والإسلام"، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢ ص ٦١-٩٩.
- الكاروري، عبد المنعم، التعريب في ضوء علم اللغة المعاصر: دراسة تحليلية للدخيل في اللغة العربية مع استنباط قوانين، جامعة الخرطوم، ١٩٨٦.

فوجي رهايو: الاقتراض اللغوي في العربية

آل ياسين، محمد حسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، دار مكتبة الحياة: بيروت
١٩٨٠.

عبد العزيز، محمد حسن، التعريب في القدير والحديث: مع معاجم الألفاظ المعربة، دار الفكر العربي،
القاهرة، ٢٠٠٢

